

الفصل الثانى

فى رحاب العلم

- السفر والترحال فى طلب العلم
- شيوخه وأئمة
- مع الإمام أحمد بن حنبل إمام
- أهل السنة وناصر القرآن
- منهج حياة وصفات شخصية

السفر والترحال في طلب العلم

حفظ الشافعي القرآن بسرعة وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث ويكتبها، وعُني بتعلم قواعد العربية وكلماتها، ورحل في سبيل ذلك إلى البادية حيث أقام في قبيلة هذيل نحو عشر سنين، ليتعلم من كلامها ويأخذ طباعها، وكانت هذيل أفصح العرب، فحفظ أشعارها وأخبارها حتى ذكر الأصمعي: إنه صحح أشعار هذيل على فتي من قريش يقال له «محمد بن إدريس» يعني الشافعي.

وقال الشافعي رحمه الله: كانت همتي في شيئين: في الرمي، والعلم، فصرت في الرمي بحيث أصيب من عشرة عشرة، وسكت عن العلم، فقال بعض الحاضرين: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي. وقال رحمه الله: أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها وحفظت القرآن فما علمت أنه مرَّ بي حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد، ما خلا حرفين: دسَّاهُ، والآخر نسيه الراوى عنه.

وانصرف في تعلم الفقه إلى مالك بن أنس ومشايخ المدينة وشخص إلى العراق فانقطع إلى محمد بن الحسن وحمل منه ثم رجع إلى المدينة بعد سنين وذهب به «مصعب بن عبد الله بن الزبير» إلى مكة وحَدَّث ابن داود عنه فأمر له بعشرة آلاف درهم.

والثابت أن الشافعي طلب العلم في مكة وبرع فيه، ولما أذن له مسلم ابن خالد الزنجي في الإفتاء، لم يقنع الشافعي بما حصله بل واصل طلب العلم وهاجر إلى المدينة، وتلقى عن الإمام مالك بعد أن استعد للقاءه بأن قرأ «الموطأ» وحفظ أكثره وأخذ كتاب توصية للإمام من والى مكة،

ولما التقى الإمام مالك بالشافعي قال له فيما قال: «إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية».

وظل مع الإمام مالك حتى توفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة، وكان الشافعي خلال ذلك يزور أمه بمكة أو يقوم برحلات هنا وهناك.

بعد وفاة الإمام مالك رحمه الله اتجهت نفسه إلى البحث عن عمل ليتكسب منه ما يدفع حاجته، وتصادف أن جاء والي اليمن إلى الحجاز فحادثه بعض القرشيين في أن يولي الشافعي عملاً في اليمن فقبل، ورهن الشافعي داراً ليجهز نفسه للسفر، وعمل رحمه الله بنجران فأقام العدل بها.

يقول رحمه الله: «وليت نجران وبها الحارث بن عبد المدان وموالى ثقيف وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه فأرادوني على نحو ذلك فلم يجدوا عندي. أغلق باب المصانعة والملقى لكيلا يصل إلى نفسه أحد، وبهذا حصن نفسه من كل فساد وشر وظلم فصار كله للعدل. وقالوا: جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر بها».

شيوخه وأئمة

تكونت ثقافة الشافعي من عدة روافد ونهضت على عدة دعائم فهناك: شيوخه وأساتذته، وهناك مطالعته وقراءاته، وهناك رحلاته إلى اليمن والكوفة والبصرة ومكة وبغداد ومصر، وهناك انتفاعه بالمناظرات والمساجلات والمجادلات التي دارت في عصره بين علماء الكلام وعلماء الفلسفة وعلماء الفقه وعلماء الحديث وغيرهم، ثم هناك أخيراً

تفكير الشافعي وتدبره، فكل هذه المصادر كونت له تلك الثقافة الواسعة. والشافعي نفسه يشعرنا بأنه يؤمن بأن تعدد الروافد لتكوين الثقافة الواسعة أمر ضروري لا بد منه ولذلك نجده يقول: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في الفقه نبّل قدره، ومن نظر في اللغة رقّ طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

بدأ الشافعي بشيخه مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة، ثم رحل وسنه ثلاث عشرة سنة إلى المدينة ولازم فيها الإمام مالكا حتى مات ثم كان له شيوخه في الحواضر والعواصم الكبرى التي رحل إليها. فمن شيوخ الشافعي في مكة:

مسلم بن خالد الزنجي وسفيان بن عيينة وسعيد بن مسلم القداح وداود ابن عبد الرحمن العطار وعبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي دؤاد. ومن شيوخه في المدينة: مالك بن أنس وإبراهيم بن سعد الأنصاري وعبد العزيز بن محمد الداروردي وإبراهيم بن يحيى الأسلمي ومحمد ابن سعيد بن أبي فديك وعبد الله بن نافع الصائغ.

ومن شيوخه في العراق محمد بن الحسن ووكيع بن الجراح الكوفي وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفي وإسماعيل بن عطية البصري وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصري.

ونلاحظ أن شيوخ الشافعي أنماط وألوان؛ فمنهم من عني بالحديث ومنهم من عني بالرأى ومنهم المعتزلي ومنهم الشيعي ومنهم أصحاب مذهب غير مذهبه.. إلخ، وقد أفاده هذا في توسيع أفقه وتكثير مادته وتضخيم ثقافته.

وقد استفاد الشافعي كثيرا من كتب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وتلميذه، ومن دراسته للفقهاء العراقي ومناظرته لفقهاء وتعدد مصادر التلقي عنده فقد هيا له الجمع بين فقه النقل وفقه العقل، وساعده ذلك فأصل الأصول وقعد القواعد فاشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره وصار منه ما صار.

سفره إلى مصر

غادر الإمام الشافعي بغداد بعد أن نشر بها مذهبه وترك بها عددا كبيرا من أصحابه تولوا بعده نشر مذهبه، وقد وصل إلى مصر سنة ١٩٩ هـ، ووجد بغيته فيها لأن بها تلاميذ شيخه مالك رحمه الله كما أن الليث بن سعد كان مقيما بها، ثم إنه وجد للعرب سلطانا فيها حيث إن واليها قرشي عباسي. وقال عند رحيله إليها:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة^(١) والقفور^(٢)
فوالله ما أدري ألفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟!

قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله: لقد أجاب القدر عن سؤاله فساقه إليهما معا، إذ فرض ذلك الوالي العربي عطاء له من سهم ذوى القربى من رسول الله ﷺ، ثم ناله الفوز بنشر آرائه وعلمه وفقهه، ثم أصابه سهم الموت فكان مسوقا إلى قبره بمصر حيث مات بها سنة ٢٠٤ هـ.

(١) المهامة: المغارة البعيدة.

(٢) القفور: الصحراء التي لا نبات فيها ولا ماء.

دراساته الخاصة وتجاريه

اتصل الشافعي بكثير من العلماء وضرب في طول البلاد وعرضها ولذا كان يقول:

سأضرب في طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسي فله درها وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ولا شك أن الأسفار- فوق ما تعطيه للفتية من مادة وخبرة- بطبيعتها تفتح الذهن وتنمي المدارك وتعطي الفكر مادة من الصور توسع تصويره وتفتح له مسالك من الفروض العقلية والمسائل الواقعية، وهي لهذا لازمة للمفكر الذى يريد أن يضع قضايا كلية للحوادث الجزئية، ولذلك كان أكثر الفلاسفة الذين أضافوا إلى آثار العقل الإنسانى آثارا يضرِبون فى الأرض ويسعون فى مناكبها، وصدق فى الشافعي قول الإمام أحمد ابن حنبل: الشافعي فيلسوف فى أربعة أشياء: فى اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه.

إن رحلات الشافعي العلمية جعلته لا يقتصر فى دراسته على فقهاء الجماعة الذين دخلوا فى طاعة الخلفاء بل كان يدرس آراء الشيعة وغيرهم ولذا قال: «من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان» وهذا الأخير شيعي زيدى.

ويروى أن الشافعي درس كل ما يمكن أن يفيد الفقيه الإسلامى الذى

يريد أن يستنبط مذهباً فقهياً ينبع من الكتاب والسنة والحمل عليهما، فدرس اللغة والقرآن والحديث وآراء من سبقوه وخلافهم ووافقهم غير مقيد بنحلة أو مذهب أو طائفة، ورحل كثيراً مستفيداً علماً كثيراً وتجارب كبيرة مختبراً لطباع الناس وأحوالهم وشئون اجتماعهم، بل يقال إنه تعلم اليونانية لأنه اعترف أمام الرشيد أنه درس ما قاله أرسطوطاليس وبقرات وجالينوس وغيرهم في علم الطب وما نقله أطباء العرب وقتنته فلاسفة الهند ونمقتة علماء الفرس^(١).

ولا يزيدنا علماً بمذهب الشافعي كونه كان يعلم اليونانية ولا يغض من استنباطه كونه كان يعلمها^(٢).

عصر الشافعي

عصر الشافعي عصر التقت فيه الحضارات القديمة، حضارات الهند وفارس واليونان في صقع واحد تحت ظل هذا الدين الجديد، وتم المزج بين تلك الحضارات متباينة الأصول فالتقت في ذلك الجيل متآلفة النغمات.. وهو عصر الخصب العقلي المستقل المنتج فهؤلاء المحدثون يشمرون عن ساعد الجد ليميز الصحيح في المروي عن رسول الله ﷺ ويضعون ضوابط ومقاييس يتعرفون بها إلى الثقات من الرجال، ويخرجون بها الشاذ من المرويات، ويبينون ما يصح أن يكون حجة في الدين ومالا يصح، ثم يدونون ما صح عندهم ورجح صدقه على مقتضى مقاييسهم.

(١) رفض المحققون هذه القصة.

(٢) الشافعي: حياته وعصره، آراؤه وفقهه: محمد أبو زهرة - ٤٣ - ٤٨ - بتصرف - دار الفكر العربي.

وهؤلاء العلماء من فقهاء ومحدثين ينتقلون في البلاد وينتجعون الأقاصى والأداني طلبا للحديث والفقه والقرآن، فيلتقى بهم الشافعي في البيت الحرام في نشأته الأولى.

ثم هذا الفقه يجمع في الكتب ويدون فيها بعد أن دُونت السُنة فيرى الفقيه آراء غيره مدونة مبسطة فيقرؤها ويدرسها وينقدها ويقبل ما يراه أقرب إلى الكتاب والسنة.

ثم هو عصر الجدل في المسائل الكلية والفروع الجزئية حيث قوة الألفاظ في الدلالة وتفهم النصوص الفقهية واستخراج الأحكام من ثنايا العبارات. جاء الشافعي في ذلك العصر، وفي وسط ذلك اللجب العلمي القوي عاش وخاض غمرات المناظرات وأخذ من تلك الثروة العلمية العظيمة، وبقوة مواهبه ودراساته وحسن اتجاهاته وفي ظل عصره خرج على الناس بآرائه ومذهبه^(١).

مع الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وناصر القرآن

من أبرز تلاميذ الشافعي أحمد بن حنبل الذي سئل عن الشافعي فقال: «لقد منّ الله به علينا، لقد كنا تعلمنا كلام القوم وكتبنا كتبهم حتى قدم علينا الشافعي، فلما سمعنا كلامه علمنا أنه أعلم من غيره، ولقد جالسناه الأيام والليالي فما رأينا منه إلا كل خير.. رحمة الله عليه». وقال الزعفراني: «ما ذهبت إلى الشافعي مجلسا قط إلا وجدت أحمد ابن حنبل فيه».

وكان ابن حنبل يجلس مقام شيخه الشافعي ويحتفل به، ولقد ركب

(١) المرجع السابق نفسه ص ٨٧ - ٨٩ بتصرف.

الشافعي يوما حماره فمشى ابن حنبل إلى جانبه وهو يذاكره ولما علم يحيى بن معين بذلك عاتب ابن حنبل على ما فعل فقال له ابن حنبل: «لو كنت في الجانب الآخر من الحمار لكان خيرا لك!» وقال ابن حنبل أيضا: «لما قدم علينا الشافعي من صنعاء سرنا على المحجة البيضاء».

وكان الشافعي يلقي درسه بمكة في المسجد الحرام حيث استمع إليه الكثيرون في موسم الحج وغيره وحيث التقى به الإمام أحمد بن حنبل وأخذ عنه، ويدل على هذا أن إسحاق بن راهويه كان عند سفيان بن عيينة يكتب منه أحاديث عمرو بن دينار فجاءه أحمد بن حنبل فقال له: قم يا أبا يعقوب حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله.

فقام معه إسحاق وأتيا فناء زمزم فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض تعلو وجهه السمرة حسن السميت حسن العقل وهو الشافعي الذي اجلس إسحاق بجانبه ورحب به بعد أن عرفه به أحمد بن حنبل فانفجر منه لإسحاق علم أعجب إسحاق حفظه، ثم قال ابن حنبل لإسحاق: «يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل فإنه ما رأيت عيناى مثله!».

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أى رجل كان الشافعي فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال يا بني: كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عنهما عوض؟!

منهج حياة وصفات شخصية

انصرف همهم إلى العلم منذ نعومة أظفاره، وعلى غير انتظار انصرف همهم إلى الفقه لفهم الأحكام الشرعية من مصادرها بعد أن كان منصرفا إلى الشعر والأدب وأيام العرب.

وقد بدأت روافد ثقافته الدينية - بعد القرآن والسنة - بمجالسته لـسليم ابن خالد الزنجي «مفتي مكة» وكثير من علمائها فأخذ عنهم حتى صار عالماً وأُذِنَ له مسلم بالإفتاء.

وعكف الإمام الشافعي على الموطأ - كما سبق - ثم عكف على أستاذه الإمام مالك بن أنس الذي نصحه بنصيحة غالية بقوله «إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية» وبعد ذلك قام برحلات إلى الكوفة والبصرة وبغداد ومصر ولم يدع عالماً إلا استمع إليه وأخذ عنه وصار له تلاميذ في كل بلد حل به أو أقام فيه.

ثم مارس التدريس في المسجد الحرام تسع سنوات، وفي بغداد سطع نجمه فأقبل عليه العلماء والمحدثون وأهل الرأي وهناك ألف كتاب «الرسالة» ووضع فيه أساس علم أصول الفقه، وقد استقى مذهبه من القرآن أولاً ثم من السنة ولذلك يسمونه «ناصر الحديث» كما يسمون أصحابه «أتباع الحديث» كما كان يأخذ بالإجماع بعد القرآن والحديث، وقد ألف كتباً كثيرة وصلت إلى ١٣ كتاباً وأشهرها على الإطلاق كتاب «الأم» الذي جمع فيه مذهبه الذي وضعه في مصر.

أما عن صفاته فقد جمع محاسن الصفات إذ جمع شرف النسب الطاهر والعنصر الباهر واجتمع هو ورسول الله ﷺ في النسب وذلك غاية الشرف ونهاية الحسب.

وله شرف المولد والمنشأ فإنه وُلد بالأرض المقدسة ونشأ بمكة المكرمة. ويتميز بقوة الإدراك العلمي حيث كان صاحب ذاكرة حافظة، عميق الفكرة بعيد الغوص لا يكتفى من الأمور بدراسة ظاهرها بل يذهب إلى أعماق أغوارها.

ويتصف بقوة البيان فقد أوتى مع فصاحة اللسان وبلاغة البيان صوتاً عميق التأثير يعبر بنبراته كما يوضح بعباراته قالوا فيه : إنه خطيب العلماء.

تمكن من أنواع العلوم حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون وقالوا فيه : إنه لو شاء أن يقيم دليلاً على هذه السارية التي من حجارة أنها من خشب لفعل ذلك.

جاد الله عليه بعلم العربية وعلم الكتاب ففقه معانيه ، وطلب أسرارهِ ومراميهِ ، وقد ألقى شيئاً من ذلك في دروسهِ . قالوا فيه : إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل.

أوتى علم الحديث وضبط قواعد السُّنة وفهم مراميها والاستشهاد بها ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها.

أوتى فقه الرأى والقياس ووضع ضوابط القياس والموازن لمعرفة صحيحهِ وسقيمهِ .

وكان مجلسه للعلم جامعاً للنظر في عدد من العلوم . تميز بنفاذ البصيرة وقوة الفراسة في معرفة أحوال الرجال وما تطيقه نفوسهم ولخبرته بنفوس الناس لا يعطى سامعيه من العلم إلا بمقدار ما يألَفون ، ويجتهد في ألا يعرفهم من نفسه إلا بما يطيقون .

كانت نفسه صافية من أدران الدنيا وشوائبها ، مخلصاً في طلب الحق والمعرفة ، صادق النظر في الاتجاه إلى الحقائق.

مكثراً لتلاوة القرآن ولا سيما في شهر رمضان ، كان يختم في كل شهر ثلاثين ختمة وفي رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ في الصلاة ، وكان كثير الصلاة بالليل .. قال ابن كثير : كان قد قسّم الليل ثلاثة أجزاء

فثلثه الأول للاشتغال بالعلم، والثاني للصلاة، والثالث ينامه ليقوم إلى صلاة الفجر نشيطا.

كان- رحمه الله - متواضعا لا يحب الشهرة ولا يحب الثناء. يقول رحمه الله: «وددت أن كل علم أعلمه تعلمه الناس أؤجر عليه ولا يحمدونني». كان متقللا من الطعام والشراب لعلمه أن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة. كان أسخى الناس بما يجد، وكان يمر بأصحابه وتلاميذه فلا يتعدى إلا معهم.

يقول عن نفسه رحمه الله: ما حلفت بالله قط لا صادقا ولا كاذبا وما تركت غسل الجمعة قط لا صيفا ولا شتاء وما كذبت قط. كان شغوبا بدراسة المجتمع من حوله دائم السعى لفهم شخصيات المجتمع ونماذجه. ومن أهم ما يدل على فطنته: قوله بأثر زواج الأقارب على ضعف النسل.

وقوله: احذر الأعور والأحول والأعرج والأحذب والأشقر والكوسج «لم تنبت له لحية» وكل من به عاهة في بدنه وكل ناقص الخلق، فإنه صاحب التواء ومعاملته عسيرة.

كان واثقا بالله تعالى، مقتصدا في ملبسه، متصدقا في كل يوم ليلا ونهارا، ولا سيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء.

كان الشافعي طويلا ممتد الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل عظام اليدين والرجلين أى عظيم الفخذ والساق والعضد خفيف شعر الخدين، يخضب لحيته بالحناء، حسن الصوت والسمة، عظيم العقل،

جميل الوجه ، مهيبا ، فصيحاً ، من آدب الناس لساناً ، أبلغ ليس حاجباه مقرونين ، مُفلج الأسنان بين كل سنة وسنة فُرجة .

وكان عالماً بالسيرِّ والمغازي وأيام العرب وكان من أعلم الناس بالأنساب ، دارياً بأمور الطب ، وكان يقول : لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب ، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه . وكان يقول : ضيع المسلمون ثلث العلم «الطب» ووكلوه إلى اليهود والنصارى . وقال : ثلاثة أشياء دواء من لا داء له وأعيت الأطباء مداواته : العنب ، ولبن اللقاح ، وقصب السكر .

ويقول أحد الأطباء : ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننتُ أنه لا يحسن غيره !

ووهبه الله عز وجل نعمة فهم فقه الحديث ومعرفة الرجال ، قال الربيع : كان أصحاب الحديث رقوداً لا يعرفون مذاهب الحديث وتفسيره حتى جاء الشافعي .

* * *